رطب أ ما كانت تطيب ؟ ألا قلتَ كما قال امرؤ القيس :

أ لَمْ ترَ أنّي كُلَّما جِئْتُ طارِقًا وَجَدْتُ بِها طيبًا وإنْ لَمْ تَطَيَّبِ [1]

ولأن الحجاز أرض الرسالة والنبوَّة ، والعهد قريب بمحمد وصحابته — نجد هناك ظلالا تحيط بهذا الجو من التحرُّر والانطلاق بعيدًا عن قيم الدين الأساسية ، ونعثر على اجتهادات في الشعر وتقويمه على أساس من الخُلق والدين ، فقد انتقد سعيدُ بن المسيَّب قول ابن أبي ربيعة :

وَغابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجو غيوبَه وَرَوَّحَ رُعْيانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ

لأنه صغَّر ما عظمه الله — تعالى — في قوله : ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حتّى عادَ كالعُرْجونِ القَديم ﴾ [2]

وقد كان خلفاءُ بني أمية إذا قَدِموا إلى الحجاز يسلكون هذا المسلك الأخلاقيَّ في تقديرهم للشعر والشعراء ، « فقد حجَّ عبد الملك بن مروان فلقيه عمر بن أبي ربيعة بالمدينة ، فقال له عبد الملك : يا فاسقُ . قال : بِئْستْ تحية ابن العم على طول الشِّحط . قال : يا فاسق ، أما إن قريشًا لتعلم أنك أطولها صَبْوة ، وأبطؤها توبة ، أ لست القائل :

ولَوْلا أن تُعنِّفَني قريشٌ مقالَ الناصِحِ الأدنى الشَّفيقِ

لَقُلْتُ إذا التَقَيْنا قَبِّليني وَلَوْ كُنّا على ظَهْرِ الطَّريقِ ؟ [3]

وعلى الرغم من هذا نجد أن بعض أصحاب الفضل والدين يقفون موقفًا

(١) المبرد : الكامل ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ٩٣ . (٢) الأصفهاني : الأغاني ، ج ١ ، ص ٩١ .
(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ . ج ٢ ، ص ٥٥ .